النورمان و المسلمون في جزيرة صقليّة في عهد الكونت روجر (توفي عام ١١٠١م)

أ. رشيد تومي♦

تعتبر العلاقات النورمانديّة الإسلاميّة بجزيرة صقليّة، أثناء حكم الكونت روجر، محطّة خاصّة في التاريخ الأوربي الوسيط. وتعود خصوصيّة هذه الصفحة، إلى كون هذه العلاقة جرت في حقبة كان الحكم الإسلامي بهذه الجزيرة قد ولّى وأدبر وانتقل زمام الملك بها إلى أسياد جدد وهم النورمان "Normands". وتحول المسلمون جراء ذلك، من حكام لأرجاء الجزيرة إلى محكومين خاضعين لهؤلاء الشماليّين في ظل نظام جلبوه معهم، اشتهر بقساوته وتعقيداته وهو المعروف بالنظام الإقطاعي. إلاّ أنّ هذه الوضعيّة لم تحل دون استمرار الطرف الإسلامي في إدارة شؤون صقلية باعتباره، في نظر النورمان، عاملاً حاسمًا في تثبيت وتأكيد الحكم النورماندي بالجزيرة. وشكّل هذا الاعتقاد لدى النورمان مُبررًا موضوعيًا لبناء علاقة مثيرة مع مسلمي صقلية وحضارتهم، شهد لها بالتأثير الفعال والملحوظ على واقع الجزيرة هذا على الرغم ممّا تميّزت به هذه العلاقة من ثُنائيّة صارخة ايجابية وسلبية، بناءة ومُجحفة، كما سيتم الكشف عنها في هذا العرض.

تحتل جزيرة صقلية موقعًا جغرافيًا هائلاً، إذ تتوسّط العالم القديم وتقع في قلب البحر الأبيض المتوسّط وتُشكّل أيضًا همزة وصل بين الشرق والغرب، الأمر الذي أهّلها لكي تلعب دورًا هامًا في عمليّة التواصل الحضاري بين العالمين المسيحي والإسلامي في العصور الوسطى. وقد ظلّت صقليّة عبر عصورها التاريخيّة المختلفة بحكم هذه المكانة الإستراتيجيّة، محلّ أنظار وأطماع الأعداء الأجانب ومن ذلك دخلت الجزيرة منذ القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري في ظلّ الحكم الإسلامي.[١] وكان هذا الحدث بمثابة فاتحة عهد جديد بالنسبة لسكان الجزيرة حيث دأب المسلمون على إرساء قواعد لحضارة شُهد لها بالرقي والازدهار، وعاش حينئذ، سكان هذه الجزيرة بمختلف أجناسهم، عصرًا ذهبيًا ملحوظًا للغاية.

على أنّ هذا الحكم الإسلامي لم يلبث أن تزعزعت أركانه بظهور النورمان[٢] على الجزيرة و قد شهد نهايته بسقوط آخر معقل للمسلمين بها ألا و هو مدينة نوطس NOTO، جنوب شرق الجزيرة، عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م في قبضة الكونت روجر Roger[٣]. الواقع أنّ النورمان حينما وطأت أقدامهم أديم صقليّة أدركوا أنّ طابع الحضارة الإسلاميّة هو الغالب والمسيطر على جميع أوجه الحياة بالجزيرة هذا على

♦ قسم التاريخ– جامعة الجزائر٢.

الرغم من وجود المسيحيّين بها. والأرجح أنّ المسلمين قد شكّلوا غالبيّة السكان بجزيرة صقليّة، وهم ينحدرون من أصول مختلفة. فمنهم الصقليون الأصليون والمولّدون وكذا العرب من اليمن ومن قيس وقريش ومنهم من ينتمي إلى قبائل بربريّة مغربيّة شهيرة كهوارة ولوّاتة وزناتة هذا إلى جانب بعض الفئات وفدت من المشرق الإسلامي والأندلس[٤]. وإذا كان النورمان قد أنهوا التواجد السياسي الإسلامي بهذه الجزيرة فإنّ مظاهر التمدن والرقي التي صادفوها قد بهرتهم وأثلجت صدورهم وتأثروا بها أيّما تأثر[٥]. وأمام هذه الحقيقة كان لزامًا على حكام النورمان أن يسلكوا سياسة إسلاميّة محكمة ومرنة تضمن لهم على الأقل، ولاء هذا العنصر الإسلامي وكذا الأمن والاستقرار واستمرار مجرى الحياة داخل الجزيرة.

وكان الكونت روجر[*] من هؤلاء الحكام الذين التزموا بهذا النهج السلمي والبناء تجاه المسلمين وهو أوّل من دشّنه، فحرص على تجسيده ميدانيًا. وقد أجمع المؤرّخون، المسلمون منهم وغيرهم، على أنّ السياسة الإسلاميّة لهذا الحاكم في صقليّة قد تميّزت بالحكمة وبعد النظر، وكان قواهما العدل والتسامح الديني والمعاملة الحسنة[6]، وهذا على خلاف نورمان انجلترا الذين أثخنوا قتلاً وظلمًا في العنصر الانغلوساكسوني في القرن ١١م[7]. وكذا التنكيل الذي اقترفه الاسبان في حق مسلمي الأندلس اثر سقوط مدينة غرناطة عام ١٤٩٢م. ويُؤكّد هذه الحقيقة التاريخيّة، الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي، حيث يقول "ولمّا صار أمرها إليه – أي أمر الجزيرة – واستقرّ بها سرير ملكه، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرّهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم ودراريهم ثمّ أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وفاة الأجل المحتوم و تقضّاه يومه المعلوم"[٨]. ولا شكّ أنّ هذه المعاملة الطيّبة والحكيمة خصّت جميع رعايا الجزيرة منهم النصارى واليهود لكن المسلمين نالوا مزيدا من التقدير والتفضيل من قبل النورمان وهذا يعود لا محالة إلى مكانتهم الحضاريّة الحساسة في المجتمع الصقلي[٩].

وفي هذا السياق أورد المؤلّف وليم الأبولي Guillaume de Pouille[*]، رواية تُعبّر عن قابليّة النورمان واستعدادهم على مداراة مسلمي الجزيرة و التفاعل معهم إيجابيًا. وعلى حدّ قوله فإنّه لمّا سقطت مدينة بالرمو في قبضة أخي روجر الأوّل وهو الدوق روبرت جوسكارد، في ربيع الثاني سنة ٤٦٤هـ/١٠ جانفي ١٠٧٢م، نال سكان الجزيرة المسلمون من لدنه، عهدًا يضمن لهم الحريّة الدينيّة والاجتماعيّة والأمان لأنفسهم وأملاكهم[١٠]. على أنّ هذا الموقف النورماندي الحكيم يدفع إلى الاعتقاد ولعلّ إلى الجزم بأنّ للكونت روجر ضلعًا وتأثيرا ملحوظين في صدور مثل هذا الاتفاق علمًا بأنّه شارك بنصيب الأسد في اقتحام مدينة بالرمو. ذلك أنّ جزيرة صقليّة شكلت منذ وصوله إلى إيطاليا مصدر اهتمامه وأطماعه وهو أصغر أبناء هوتفيل، وإليه أوكل

مشروع فتحها والذي انطلق منذ سنة ١٠٦٠م. ونجح حتّى سنة ١٠٧٢م في بسط سيطرته على أجزاء مُعتبرة من الجزيرة، فصارت له حينئذ، دراية واسعة بأوضاع صقليّة الداخليّة وبطبائع سكانها، ومن ثمّ أيقن دون شك أنّ مثل هذه المعاملة القائمة على الرفق والتسامح لن تُفضي إلاّ إلى تيسير عمليّة إرساء قواعد الحكم النورماندي بالجزيرة[١١]. وعن دور الكونت روجر فيما آلت إليه بالرمو، فإنّ الأستاذ مورينو ينسب إليه مسؤوليّة إبرام هذه الاتفاقيّة مع قيادة المدينة الإسلاميّة[١٢]. وعندما انتهى أمر المدينة إلى النورمان، لم يجد الكونت روجر بُدًا من إسناد شؤون مدينة بالرمو إلى أمير عربي محلي[١٣]. وذكر المؤرّخ شالندن أنّ نفس الاتفاقيّة أبرمها الكونت روجر مع أغلب مدن صقليّة[١٤]. وقد أقرّت المستشرقة و المفكّرة الألمانيّة، زيغريد هونكه، هذه المعاملة النورمانديّة الطيّبة حيث رأت فيها امتدادًا لسياسة العدل والتسامح التي مارسها قادة الفتح الإسلامي تجاه أهالي المناطق التي فتحوها[١٥].

وتُلفت رواية ابن خلدون الانتباه حينما أفادت بأنّ سقوط مدينة مازر والذي وقع بعد استسلام بالرمو بقليل، قد جسّد انقطاعًا لكلمة الإسلام ويعني ذلك نهاية للحكم الإسلامي بجزيرة صقلية[١٦]. لكن ينبغي الإشارة إلى أنّ هذا الحدث جرى في سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م و أمّا المقاومة الإسلاميّة المحليّة للاحتلال النورماندي، فإنّها استمرّت إلى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م.

وإذا كان نجاح الكونت روجر في بسط سيطرته على كلّ أجزاء صقليّة فإنّ ذلك يؤشر حقًا إلى أفول الوجود السياسي الإسلامي بالجزيرة فيما ظلّت الحضارة الإسلاميّة برّاقة ووهّاجة تُنير أرجاءها طيلة الحكم النورماندي بها.

ويتجلّى أيضًا تعلّق روجر الأوّل بالعنصر الإسلامي من خلال سعيه الجاد إلى توفير الحماية له من المضايقات التي قد تصدر من رجال الدين المسيحيّين. وعليه فإنّ الكونت روجر تحاشى كلّ الأسباب التي من شأنها تأثير الحساسيّات الدينيّة كالتبشير بالمسيحيّة مثلاً في الأوساط الإسلاميّة ومن ذلك لم يحاول إكراه المسلمين على دينهم[١٧]. وتفيد رواية الراوي أدميرو Eadmer بأنّ الأسقف أنسلمو الكنتربريAnselme de Canterbury[*] لما زار معسكر روجر وهو يحاصر مدينة كابوا CAPOUE الثائرة بأبوليا – جنوب إيطاليا – في صيف عام ١٠٩٨م، لاحظ قوّة الفرقة الإسلاميّة المشاركة في هذا الحصار وكان حجمها كبيرًا. لكن ما حظي به هذا الاسقف من مظاهر التقدير والتكريم من قبل الجنود المسلمين جعله يعتقد بأنّ هؤلاء، مستعدون بكلّ يسر و سهولة لاعتناق المسيحيّة. ولما استفسر عن تأخر روجر عن تنصيرهم أجيب بصوت واحد "لا تقل هكذا بل منع رجار المسلمين اشد المنع عن ترك دينهم"، فيما "حظر أيضًا على القساوسة الكاثوليك تنصيرالمسلمين من جنده"[١٨].

ولا شكّ أنّ لهذا التسامح الديني له وقعه الإيجابي على شريحة معلومة من مسلمي صقلية إذ لم يجد هذا القوم غضاضة على إظهار الولاء و الطاعة لروجر[١٩]، ممّا جعل هذا الأخير يفتح لهم باب الانخراط في جيشه لما أنسه فيهم من ثقة و مهارة في القتال وقد توسّع في الاعتماد عليهم حتّى غلبت الصبغة الإسلاميّة على جيشه و شكّلوا رأس حربة الجيش النورماندي، إذ بلغ عددهم أثناء حصار الكونت لمدينة أمالفي الساحليّة بجنوب إيطاليا عام ١٠٩٦م عشرين ألف محارب[٢٠]، وأثناء طوقه لمدينة كابوا عام ١٠٩٨م، كان حجم القوّة
الإسلاميّة المرافقة له أضخم بكثير. وعبّر أماري نقلاً عن رواية لاتينيّة، عن هذا المشهد العسكري بالعدد الذي لا يُحصى من مخيّمات المسلمين المنتصبة في سان ماركو San Marco بقلورية Calabre، مشيرًا إلى تغطيته تلالها بثيران المسلمين ونعامهم وماعزهم[٢١]. وقد ساعدته هذه القوّة الإسلاميّة إلى حد بعيد في القضاء على جميع أشكال المعارضة وحركات التمرد والعصيان التي كان يدبرها ضدّه كبار الأفصال – الأسياد – النورمانديّين في صقلية وجنوب إيطاليا على حد سواء[٢٢]. ويرى شالندن أنّ التسامح الذي لقيه المسلمون من لدن روجر الأوّل، قد سمح لهذا الأخير بتشكيل فرق عسكريّة إسلاميّة قويّة ومطيعة له بل عجّلت أيضًا ببسط سيطرته على بعض المدن الإسلاميّة في صقليّة[٢٣]. وليس هناك من شك أنّ مثل هذه السياسة تُثير كثيرًا من الغرابة والدهشة كما تكتسي أهميّة قُصوى في تاريخ العلاقة الإسلاميّة المسيحيّة لكونها تجري في وقت كانت أوربا الغربيّة تقود أكبر حملة صليبيّة على البلاد الإسلاميّة في المشرق.

– وكان من الطبيعي بمكان أن تثير هذه السياسة القائمة على ترك الحرية الدينية للمسلمين، انزعاج الكنيسة، حيث نظرت إليها نظرة ملؤها الشك وعدم الرضا معتقدة بأنّ الكونت روجر يوثر مصلحة دولته عن مراعاة الاحكام الدينيّة. ومن ذلك تحمّل هذا الأخير ضغوطًا ثقيلة من الكنسية الداعية إلى وجوب تنصير المسلمين[٢٤]، لكن هذا الحرص الشديد على عدم إكراه المسلمين في دينهم، لم يمنعه من بذل العطاء الوافر لمن يُقبل منهم على اعتناق المسيحية حسبما ذكره المؤلف شالندن الذي يعترف بالسياسة الإسلاميّة الايجابيّة والبنّاءة للكونت روجر الأوّل[٢٥]. ونظرًا لأهميّة العنصر الإسلامي في مخطّطاته العسكريّة والحضاريّة في إيطاليا فإنّه يجوز القول بأنّ مثل هذه الحالات قد تشكل استثناءات ضمن مشهد غلب عليه الطابع العربي الإسلامي البحت.

وفي مجال التسيير كان العنصر الإسلامي يُشكّل العمود الفقري في إدارة النورمان، وكونت الحضارة الإسلاميّة الأساس لكل نشاط حكومي ومن ثمّ فإنّ روجر حافظ على النظم الإسلاميّة واتخذ المسلمين أعوانًا له لتدبير شؤون الرعيّة وتمسّك بالتقسيم الإداري الإسلامي وبالألقاب الإسلاميّة لبعض المناصب السامية في الدولة، كالحاكم والقاضي والعامل والشيخ والقائد[٢٦]. ولم يحاول روجر تغيير الأوضاع

الاجتماعيّة الداخليّة للجزيرة وترك الناس يعيشون كل وفق عاداته وقوانينه. فبالنسبة للمسلمين في بالرمو، ذكر ابن جبير: "ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم"[٢٧] كما رأى مسلمي طرابنش يخرجون "إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم"[٢٨]. ومارس هؤلاء المسلمون شعائرهم الدينيّة بكل حريّة واطمئنان وكان الآذان يُسمع من الصوامع في كلّ وقت كما استمروا في الاحتفال بأعيادهم دون قيد أو رهق[٢٩].

وأمّا اللغة العربيّة فقد احتفظت بمركزها المرموق في أيّام الكونت روجر فاتسع مجال استخدامها، هذا إلى جانب اللغتين اليونانيّة واللاتينيّة واستعملت في كتابة الوثائق الرسميّة والدواوين[٣٠]. ويُذكّر أنّ المصلحة التي تُشرف على "تقويم الأملاك" تسمى رسميًا – ديوان تحقيق المعمور– أي "مكتب تحقيق الخزانة" ويعرف اللفظ اللاتيني Dohana de Secretis. وكان دور هذه المؤسّسة هو تسيير ممتلكات الجزيرة ماليًا وإداريًا مع الاحتفاظ بطابعه العربي. وثمّة سجلات أبقى عليها النورمان تحمل اسم Defetarii وهو مُقتبس من اللفظ العربي دفتر. وتتضمّن هذه الدفاتر ذات الطابع المالي وصفا دقيقا لوضع كل إقطاع بصقلية من حيث الحدود والمساحة وأسماء ملاكها وأتباعهم من الأسياد والفلاّحين الأحرار والعبيد. وقد ظهرت الإشارة إلى هذه الأداة منذ عام ١٠٩٥م أي في عهد الكونت روجر[٣١]. ويظل أثر اللغة العربيّة على اللغات الأوربيّة واضحًا فمثلاً من لفظ ديوان اشتقت كلمتا Douane الفرنسيّة وDogana الإيطاليّة[٣٢] وهناك بعض الرسوم تمسك بها الكونت روجر وهي من الممارسات الاقتصاديّة العربيّة في الجزيرة كرسم الرحبة Rahba أي السوق ورسم الكنجيمية Cangemi وهو تحريف للفظ حجّام، يدفعه الحجّامون وهم حلاّقون في ذات الحين، للدولة[٣٣].

وأمّا المبادرة التي حُقّقت في أيّام الكونت روجر والتي هي ملفتة للانتباه حقًا إنّما تتمثّل في النقود التي سكّها هذا الحاكم عقب استيلائه على مدينة بالرمو وقد حملت في طيّاتها التاريخ الهجري وعليها كذلك إلى جانب اسم "وربرت أخي رجار" الشهادة الكاملة الإسلاميّة وكذا الآية التاسعة من سورة الصف (سورة ٦١) والقائلة "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المُشركون". ويُرجّح أن روبرت جوسكارد، وهو أخو روجر، قد اشترك في هذه المبادرة[٣٤]. وقد كشف أماري عن وجود عملة ذهبيّة سكّها الكونت روجر، مرصّعة برمز اسلامي على أحد وجهيها، وتُسمى الطرى Tari، تزن غرامًا أو أقل بقليل[٣٥]. هذا على الرغم من استمرار تداول العملة الفاطميّة الرباعي – أي ربع الدينار – في صقلية، وهو يتساوى مع الطرى في وزنه وشكله[٣٦]. لكن أماري يعترف بالغموض الذي يكتنف ميدان العملة في بداية الحكم النورماندي، مُعلقا الآمال فيما ستكتشفه الدراسات الأثرية من جديد في هذا المضمار[٣٧]. وعن الغرض من إضفاء الطابع الإسلامي على هذه العملة،

فإنّ الكاتب دي لامبريمودي De La primaudaie، يُشير إلى أنّ الكونت روجر كان يسعى إلى استرضاء مسلمي الجزيرة وكسب ثقتهم(٣٨)، فيما رأى الكاتب مورينو أنّ النورمان حرصوا بهذا الانجاز على أن تحظى نقودهم بالقبول في الأسواق الإفريقية(٣٩). لكن مهما كان أمر ومغزى هذه المبادرة، فإنّ هذه الأخيرة تُجسّد روح التسامح والحكمة السياسيّة اللتين تحلّى بهما حكام النورمان. ويُلخص الكاتب مورينو، هذا الواقع الفريد بقوله: "أنّ صقلية في أيّام الكونت روجر، كانت مملكة نصف إسلاميّة في دينها وفي نظامها الإداري والعسكري"(٤٠).

وهكذا فإنّ ما سبق ذكره يُمثّل الصفحة الايجابيّة والمشرقة لسياسة روجر الإسلاميّة في صقلية ولعلّ مردها، هو ضرورة تقتضيها مصلحة الكيان النورماندي منها سلامة الدولة الناشئة(٤١). وكان للعنصر الاقتصادي، إلى جانب العاملين السياسي والحضاري، دور في بلورة هذا الموقف لدى روجر الأوّل، إذ ظلّ هذا الأخير يُخطط لتحويل جزيرة صقلية إلى مركز ثقل تجاري يكون شمال افريقية الاسلاميّة أحد المتعاملين الاساسيّين معه ومن ذلك بات لزامًا عليه مسالمة مسلمي صقلية و مهادنتهم حتى يُحقق هذه الغاية الاقتصاديّة المنشودة(٤٢) وتتجلّى أيضًا أهميّة افريقية الاقتصاديّة بالنسبة لروجر الأوّل، حينما التمس منه بالدوفينو Baldovino "ملك الفرنج"(*) الانضمام إليه لغزو افريقية حيث كان رده على هذه الدعوة الامتناع و الرفض البات و ذلك مراعاة لمصالحه التجاريّة مع افريقية وحفاظًا على معاهدة السلام التي تربطه بالأمير تميم بن المعز الزيري. وأوْرد ابن الأثير في روايته سبب هذا الرفض فقال: "وينقطع عني إليهم ما يصل من المال من ثمن الغَلاّت كلّ سنة...ويقول تميم غدرت بي ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد افريقية"(٤٣).

– لكن ثمّة وجه آخر لسياسة روجر الأوّل تجاه مسلمي صقلية، اتسمت بالقساوة وسوء المعاملة، أثّرت سلبًا على أوضاعهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ العناصر الإسلامية المحظوظة هي من أهل المدن الذين أبرموا بعد الاستسلام، اتفاقًا مع الكونت روجر ضمنت لهم حريتهم وحقوقهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدينيّة مع إعفائهم من دفع الجزية(٤٤). وبموجبه نالت بالرمو القسط الأوفر من هذا الحظ والذي استمرّ إلى وفاة الملك النورماندي وليم الصالح Guillaume le Bon عام ١١٨٩م. لكن ينبغي التنويه بأنّ هذا الوضع لم يُعف سكان هذه المدن من دفع الرسوم التي تفرضها التعاملات العامّة بالجزيرة والمرتبطة بمختلف الجوانب الاقتصاديّة والقضائيّة والعسكريّة وحتّى الإقطاعيّة(٤٥)، وضمن هؤلاء يوجد الأفاضل Homines وهم فئة الأحرار، ينعمون بحق الامتلاك وحُريّة التصرف فيما يملكون، وينضم بعضهم في فئة كبار الأفاضل أو رجال الصالحين Boni Homines الذين اشتهروا بدورهم الإداري والمالي والقضائي في تسيير شؤون المدينة(٤٦).

الواقع أنّ الكونت روجر سلك سياسة مغايرة مع بقيّة سكان الجزيرة المسلمين، خاصّة الفلاحين في القرى والبوادي، حيث فرض عليهم منطق الغالب على المغلوب فتحوّلوا بموجب ذلك، إلى أرقاء أو أقنان وعبيد أرض للسادة الاقطاعيّين المرافقين لروجر وعُرفت هذه الشريحة الإسلامية العريضة في صقلية باسم "رجال الجرائد" أو "أهل الجرائد" أو "رجال السجلات" Adscriptitii باللفظ اللاتيني وسُميت أيضًا باسم القرويّين Villani. وقد انحطت وضعيّتها بشكل رهيب وتحمّل أفرادها كل سلبيّات وأثقال النظام الإقطاعي الذي نقله النورمان إلى صقلية وجنوب إيطاليا(٤٧). وصار مصطلح Agarenus يحمل معنيين: مسلم أو رقيق الأرض(٤٨).

ويبدو أنّ الكونت روجر لم يُظهر أثناء اجتياحه لأراضي صقلية، أيّة رأفة أو لين تجاه المقاومين المهزومين حيث استولى على أملاكهم وحوّلهم وأهلهم إلى أرقاء تابعين له ولأفصاله(٤٩). كما فرض عليهم دفع الجزية المعروفة بضريبة الرؤوس، وخضع هؤلاء أيضًا لنظام الخدمة العسكريّة عندما تقتضي الحاجة إلى ذلك فضلاً عن إجباريّة أدائهم لأعمال السخرة التي يفرضها النظام الإقطاعي(٥٠)، ناهيك عن الأضرار الماديّة الجسيمة التي لحقت بالوسط الريفي للجزيرة(٥١)، ويُصوّر ابن الأثير جانبًا من هذا المشهد العام بعد فوز النورمان على القوى الإسلامية المحليّة وهو يكشف عن سعي روجر الأوّل إلى غرس العنصر المسيحي في الوسط الإسلامي بصقلية فيقول: "وأسكنها – أي الجزيرة – الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حمّامًا ولا دكّانًا ولا طاحونًا ولا فرنًا"(٥٢).

وقد عُرف عن الكونت روجر، أنّه عَامَل بعض الأسرى المسلمين الذين وقعوا في صقلية في قبضته بالجزيرة، بقسوة شديدة ولم يحفظ لهم كرامتهم حيث كان يبعث بهم إلى إيطاليا ليُباعوا عبيدًا في سوق النخاسة. وعن هذا التصرف قال الراوي إيمي دي مونت كاسينو Aimé du M^t Cassin: " et les prisrent et vendirent pour vils prison"(٥٣). كما لم يتردّد عن منح مدينة قطانيا Catane بالجزيرة، هبة إقطاعيّة لأحد الأساقفة، ممّا أدّى إلى تحويل أهلها المسلمين إلى أهل الجرائد أي إلى أرقاء(54). وبهذه المدينة نجح روجر بعدئذ في بعث مركز كنسي قوي في وسط إسلامي بارز، كرّس وُجوده الرسمي، البابا أربان الثاني بموجب قراره الصادر يوم ٩ مارس عام ١٠٩٢م(55).

وفي سبيل خدمة الكنيسة الكاثوليكيّة سعى الكونت روجر حثيثًا إلى تعزيز أسسها وتقوية نفوذها بالجزيرة وذلك دون شك على حساب المسلمين والمذهب الأرثودوكسي المسيحي. ومن ذلك أمر بتحويل عدّة مساجد إلى كنائس مع تعيين رئيس أساقفة كاثوليكي محل أسقف يوناني بمدينة بالرمو، بقرار بابوي عام ١٠٨٣م، علمًا بأنّ هذه المساجد كانت في الأصل كنائس قبل الفتح الإسلامي للجزيرة(٥٦). وأمّا بالنسبة

لسياسة التبشير فإنّه على الرّغم من إدراكه لحساسية المسألة إلاّ أنّه لم يجد غضاضة ولا حرجا في إسداء العطاء الجزيل لمن يرتد عن الإسلام من سكان الجزيرة، كما سبقت الإشارة إليه. وقد استحسن روجر وابتهج للإقدام ابن حمود على اعتناق المسيحية، عقب سقوط مدينته قصريانه في قبضة الكونت عام ٤٨٤هـ/ ١٠٨٨-١٠٨٩م. ولمّا خشي عن حياته وممّا قد يعمد إليه مسلمو صقلية من محاولة الانتقام منه، نقله روجر إلى جنوب إيطاليا، فأسكنه بالقرب من ميليتو Mileto في إقليم قلورية، ثمّ أقطعه بعض الضياع به فحسنت أحواله(٥٧).

ومن جهة أخرى فإنّ الكونت روجر، الذي فاز بشهادة المؤرّخين عن تسامحه الديني وحكمته السياسيّة، لم يتورّع عن توظيف العامل الصليبي عند الحاجة، لإنهاء فتح صقلية وخاصّة بعد إقراره احتلال مدينة سرقوسة التي كان أميرها ابن عباد "Bernavert" قد أغار في صيف عام ١٠٨٤م على سواحل قلورية بجنوب إيطاليا. وبيّنت الأجواء الروحيّة التي أحاطت التحضيرات لهذا المشروع، مدى حرصه على إثارة شعور الحقد والكراهيّة لدى أتباعه تجاه مسلمي صقلية. ولعلّ إضفائه الطابع الديني على هذه الحملة إنّما يسعى وراءه إلى نيل دعم الكنيسة لإحكام سلطته على ممتلكاته(٥٨).

ولم يُؤد الغزو النورماندي إلى إلحاق الضرر بالمقدرات الاقتصاديّة للجزيرة فقط بل سجّلت هذه الأخيرة هجرة واسعة نحو البلاد الإسلاميّة كشمال إفريقيا والأندلس والديار المصريّة(٥٩). ويُفيد ابن الأثير في روايته بأنّ الفرنج وهم النورمان قد "ساروا في الجزيرة فاستولوا على مواضع كثيرة وفارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين"(٦٠). وفي هذا الظرف الحالك، هبّت قريحة الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد، لتُعبّر عن هذا الواقع الصقلي المؤلم فلخّصته في البيتين الآتيين:

عشقت صقلية يافعًا ۞ وكنت كبعض جنان الخلود

فما قُدّر الوصول حتّى اكتهلت ۞ وصارت جهنّم ذات الوقود(٦١).

وكان لا بُدّ لمثل هذه الحركة أن تُؤثر على النسيج الاجتماعي الإسلامي لكن هذا الأخير ازداد اختلالاً حينما حدثت في عهد روجر الأوّل، هجرة للمسيحيّين إلى صقلية، فأخذت حينئذ جموع المسيحيّين تنثال على صقلية وافدة من دوقيّة نورمانديا وشمال فرنسا

وإيطاليا وخاصّة من لومبارديا – بشمالها – حيث استقرّت بها على مرّ السنين مجموعات لومبارديّة كثيفة(٦٢). وعن هذه الهجرة فإنّ المؤلّف أماري يُقلل من التأثير الكبير لمنطقتي نورمانديا وشمال فرنسا في هذه الحركة(٦٣). ولعلّ وقوف روجر الأوّل وراء هذا النزوح المسيحي قد يُفسّر إقلاعه عن سياسة تنصير مسلمي صقلية، ذلك أنّه أيقن أنّ تعمير الجزيرة بالمسيحيّين سيُكسب الكنيسة الصدارة الدينيّة بها باعتبارها دين

الحاكم الرسمي. ورأى أنّ هذه الإستراتيجيّة هي أفيد وأنجع من تنصير مسلميها كما كانت تريده البابويّة[٦٤]، لكن يبدو أنّ الخلاف الذي دبّ بين الكونت روجر والبابويّة * لم يدر حول مسألة تنصير مسلمي صقلية كما أورد ذلك الكاتب أحمد عزيز وإنّما يرجع سببه إلى رغبة كل واحد منهما في إقرار سُلطته على كنيسة صقلية وخاصّة أنّ روجر قد أبدى استعدادًا قويًا لفرض تنظيم جديد على المؤسّسات الكنسيّة وفق إرادته ودون أيّ تدخّل من أسقف روما[٦٥].

ويُشير المؤلّف الفرنسي شالندن Chalandon، إلى حرص الكونت روجر على استقدام عناصر مسيحيّة إلى صقلية قصد تأسيس مجموعات بشريّة جديدة حتّى يسُدّ الفراغ السكاني الذي أصاب الجزيرة جرّاء الحروب الضارية التي عرفتها منذ فترة طويلة[٦٦].

– وعلى ضوء هذه الصورة القاتمة التي عُومل بها السواد الأعظم من المسلمين في صقلية من لدن الكونت روجر، فإنّ الكاتب الايطالي أماري ميكيلي لم يتورّع عن إظهار تعجّبه ودهشته من رواية الشريف الإدريسي[٦٧]، المعاصر والمقرّب للملك روجر الثاني (١١٣٠– ١١٥٤م) لحكم النورمان، والتي تُثني على حكمة روجر وعلى إحسانه وإكرامه لمسلمي صقلية لكن دون أن يلتفت إلى "إخوته في الإسلام" الذين يرزحون تحت وطأة العبوديّة والجزية المنهكة. ثمّ يرى أماري أنّ هذه الشهادة تُعد سليمة ومنطقيّة إذا كانت تخصّ فقط مسلمي العاصمة بالرمو[٦٨]. الواقع أنّ أغلب الدارسين يميلون إلى الاعتقاد بأنّ ظاهرة الضيق والضنك التي طالت المسلمين، سادت في الأرياف فقط. أمّا إخوانهم، من أهل المدن، فقد نعموا بوضع مُعتبر يليق بمقامهم باعتبارهم عناصر فعّالة وحيويّة في المجتمع الصقلي.

وعلى ضوء هذا العرض يُستشف أنّ العلاقة النورمانديّة الإسلامية، في جزيرة صقلية في عهد الكونت روجر، تتميّز بمظهرين بارزين. مظهر سلمي وإيجابي، يقوم على أساس واقعي "براغماتي"، ينم عن إرادة روجر في مهادنة ومسالمة شريحة فعّالة من المجتمع الإسلامي الصقلي وذلك لأغراض استراتيجيّة واضحة. ومظهر عنيف وسلبي، يعكس الوجه الحقيقي لهذا الكونت باعتباره عدوًا للقسم الأعظم من أهل صقلية ومُغتصبًا لأراضيه.

ومهما يكن من أمر هذه الثنائيّة في التعامل مع المسلمين، فإنّ صقليّة في عهد الكونت روجر، تبقى العلاقة الإيجابيّة نموذجًا ملحوظًا للتفاعل الجنسي والانسجام الحضاري وكذا التعايُش السلمي بين الحكام المسيحيّين النورمان والمسلمين المحكومين. وتُجسّد هذه العلاقات غير المألوفة قمّة الغرابة والتناقض في مجتمع كان يعيش على وقع مؤثرات النهضة الروحيّة التي تزعّمتها الهيئات الدينيّة المسيحيّة[*] وما انجرّ عنه من نمو الفكر الصليبي المعادي للمسلمين والذي كان له أكبر الأثر على العلاقات بين الشرق والغرب. وتُعد صقلية البلد الأوربي الوحيد الذي ينعم بهذه

الظاهرة الحضاريّة الغريبة علمًا بأنّ الأوربيّين في هذه الحقبة بالذات قد وجهوا حملة صليبيّة واسعة النطاق ضدّ المسلمين في بلاد الشام. ويُفيد ابن الأثير أنّ الكونت روجر قد تلقى دعوة من الصليبيّين للمشاركة في الهجوم على إفريقية عام ١٠٨٦م، غير أنّه أجاب بالرفض البات. وموقف مماثل أبداه حينما دعي للانضمام إلى الحملة الصليبيّة الأولى عام ١٠٩٦م(٦٩).

والواقع فإنّ سياسة روجر الداخليّة في صقلية لها ما يبرّرها في هذه المرحلة، ذلك أنّها تستجيب لطموحات هذا الحاكم الذي جاء إلى هذا الصقع، مغامرًا ومحرومًا، بحثًا عن المجد والملك. وقد أيقن بصائب نظره وحدّة ذهنه أنّه لن يُحقق مراده إلاّ إذا سلك سياسة تُرضي جميع أهالي الجزيرة وهو شرط أساسي لتحقيق الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي، وأمّا مسالمته للمسلمين فقد اعتبرها الوسيلة الكفيلة لتوطيد سلطانه وأسس حكمه وضمان الاستمرار الطبيعي للحياة داخل الجزيرة. والاعتماد على الحضارة الإسلاميّة لتحقيق هذا الهدف في نظره، أمر ضروري وحتمي لأنّ النورمان لم يكن بإمكانهم تقديم البديل الحضاري – كما فعل وليم الفاتح Guillaume le Conquerant في بريطانيا في القرن ١١م – يُعوّضون به الواقع الإسلامي الذي رسخت جذوره في أعماق الحياة الصقليّة. ولم نلمس مثل هذا الموقف من قبل الحكام المسيحيّين عقب اضمحلال الحكم الإسلامي في الأندلس ممّا جعل المسلمين يُعانون كربًا ثقيلاً وحياة ضنكا جرّاء اضطهاد المسيحيّين لهم. إنّ الفرق واضح بين التجربتين الأولى في صقلية – القرن ١١م – والثانية في الأندلس – القرن ١٥ و١٦م –. ولا شكّ أنّ هذا يعود إلى ما تميّز به روجر من تبَصر وحكمة وإلى تقديره كذلك لسيادة المسلمين وريادتهم في المجال الحضاري في هذه المرحلة التاريخيّة الهامّة. ممّأ جعله يُلقي رواسي لعهد جديد في صقليّة، قوامه التعايش السلمي بين حكام النورمان والمسلمين وستعرف هذه العلاقة استمرارًا وتطوّرًا ملحوظين في عهد خليفته وابنه الملك روجر الثاني (١١٠١-١١٥٤م) وحفيديه، وليم الأوّل (١١٥٤-١١٦٦م) ووليم الثاني (١١٦٦-١١٨٩م).

الهوامش:

(١) بدأ الفتح الإسلامي للجزيرة بشكل جاد في عهد الأغالبة وقاعدتهم القيروان بإفريقيّة وعلى وجه التحديد في أيّام زيادة الله (توفي عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م). وتزعّم أوّل حملة كاسحة على الجزيرة عام ٢١٢هـ/٨٢٧م، القاضي أسد بن الفرات، فسقطت مدينة بالرمو عام ٢١٦هـ/٨٣١م ومسينا عام ٢٢٨- ٢٢٩هـ/٨٤٢ أو ٨٤٣م وفي عام ٢٤٤هـ/٨٥٩م خضعت قصريانه وأمّا سراقوسة، أهم معقل في الجزيرة فقد فتحت عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م. عن الفتح الإسلامي لجزيرة صقليّة، ارجع إلى ابن الأثير : الكامل في التاريخ، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧، ص. ٢٢١ وما بعدها؛ ابن خلدون: كتاب العبر، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م، ص٤٦٦ وما بعدها؛ النويري : نهاية الأرب، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقليّة، ص٤٢٧ وما بعدها؛ ماجد (عبد المنعم): العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، ١٩٦٦م، ص. ٩٧- ١٠٢؛ إحسان عباس: العرب في صقلية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، ص.٣١- ٣٩؛ أحمد عزيز: تاريخ صقلية الإسلاميّة، نقله إلى العربيّة الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربيّة للكتاب، طرابلس الغرب، ١٣٨٩هـ/١٩٨٠م، ص١٣ وما بعدها.

(٢) النورمان كلمة مركّبة تعني رجال الشمال. ويُطلق عليهم كذلك اسم الفيكنج VIKINGS أي سكان الفيوردات أو الخلجان. ينتمي النورمان أصلاً إلى شبه جزيرة اسكندناوا (النورويج – السويد- الدانمارك). تحرّكوا صوب الجنوب أي القارّة الأوربيّة القديمة في أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديّين. وفي سنة ٩١١م سمح ملك الجزء الغربي لفرنسا، شارل البسيط Charles le Simple (٨٩٣- ٩٢٢م)، لطائفة منهم بزعامة رولو Rollo، بالاستقرار في إقليم يعرف اليوم بنورماندیا Normandie غرب فرنسا وهذا مقابل شروط ينفذها زعيم هذه الجماعة.

ومن هذه المنطقة لجأت أسراب من هؤلاء الرجال المغامرين إلى إيطاليا الجنوبيّة في مطلع القرن ١١م، بحثًا عن مستقبل مشرق لهم وكان من بينهم، أعضاء من أسرة هوتفيل Hauteville، كروبرت جوّسكارد Guiscard وروجر Roger ووليم ذي الذراع الحديديّة Guillaume Bras- de- Fer. وقد انتهى إليهم أمر جميع المدن الكبرى لهذا الاقليم كمدينة باري BARI عام ١٠٧١م وأمالفي AMALFI عام ١٠٧٣م وسالرنه Salerneعام ١٠٧٦م. واشرأبّت كذلك أعناقهم إلى جزيرة صقلية، مستغلين الخلافات الحادّة الدائرة بين الأمراء المسلمين وتمكنوا من إخضاع أهم مدنها الواحدة تلو الأخرى كبلرمو Palermo عام ٤٦٤هـ/١٠٧٢م، وفي نفس العام، مدينة مازرا Mazara وطرابنش Trapani عام ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وجرجنت Girgente في عام ٤٧٩هـ/ جويلية ١٠٨٦م وقصريانه Castrogiovannie عام ٤٨٤هـ/

١٠٩١م، وطبرمين Taormine عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م وسراقوسة Syracuse عام ٤٧٨-٤٧٩هـ/ أكتوبر ١٠٨٦م. عن تفاصيل هذه الأحداث كلّها ارجع إلى: أماري (م.): تاريخ مسلمي صقلية، إعداد محب سعد إبراهيم، لي مونييه، فلورنسا، جـ. ٣، سنة ٢٠٠٣. وأنظر أيضًا:

Guillaume de Pouille, La Geste de Robert Guiscard, Edition, Traduction, Commentaire et Introduction par Marguerite Mathieu, Palermo, 1961; Orderic Vital : Historia Ecclesiastica, traduit par Guizot (G. A) dans collection des Memoires Relatifs à l'Histoire de France, T. II, Paris, 1825; Chronique du M^{t}- Cassin, traduit par Calmette (J.) dans Textes et Documents M-Age, T. II, Paris, 1953 ; Chalandon(F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Librairie Alphonse Picard et Fils, Paris, 1907, T. I et II, Paris, 1907 ; Delarc(O.), Les Normands en Italie depuis les Premières invasions Jusqu´à l´avènement de S^{t} Grégoire VII, Paris, 1883 ; Musset(L.), Les Peuples Scandinaves au M-Age, Paris, 1951; Halphen(L.), L´Essor de l´Europe XI^{e} –XIII^{e} S., Paris, 1932; La Primaudaie(Elie de), Les Arabes et les Normands en Sicile et en Italie, Challamel Ainé, Librairie- Editeur, Paris, 1868.

(٣) النويري: نهاية الأرب، نقلاً عن م.ع.ص.، ص٤٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل، نقلاً عن م.ع.ص.، ص٢٧٨ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس، نقلاً عن م.ع.ص.، ص٥٣٤. وانظر أيضًا إحسان عبّاس: العرب في صقليّة، ص١٣٢- ١٣٣. ذكر وليم الجومياجي وأردريك فيتال، وهما مصدران أساسيان في تاريخ النورمان، أنّ الكونت روجر ملك جميع أقطار صقلية. وأنظر أيضًا: Guillaume de Jumièges, Historia Normannorum, Traduction Guizot (G. F.), dans collections des Mémoires, Paris, 1826, P. 219; orderic vital, Op.cit., T. II, P. 49.

Chalandon(F.), op. cit., T. I, pp. 339- 340; Halphen(L.), op. cit., p. 49.

(٤) أماري(م): تاريخ مسلمي صقلية، المجلد الثالث، ص. ٢١٠ وما بعدها؛ إحسان عبّاس: العرب في صقلية، ص. ٦٥- ٦٦، ١٣٧، ١٤٩؛ عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلاميّة، ص. ٧٨- ٧٩.

(٥) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب، -أثر الحضارة العربيّة في أوربا-، نقله عن الألمانيّة، فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة،

بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٤١١ ؛ حامد زيان: الإسلام والمسلمون في صقلية في ظل الحكم النورماني، في مجلّة كليّة الآداب، جامعة القاهرة، المجلدان ٣٦ و٣٧، الجزءان الأوّل والثاني، مايو، ديسمبر ١٩٧٤م ومايو، ديسمبر ١٩٧٥م، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨١م، ص. ١٢٤. عن تفاصيل ازدهار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعيّة، أنظر: ابن حوقل: المسالك والممالك، نقلاً عن م.ع.ص.، ص٤- ١٠؛ الإدريسي : نزهة المشتاق، نقلاً عن م.ع.ص.، ص. ٢٨ وما بعدها.

(*) هو من فريسانده Fressenda، الزوجة الثانية لتانكريد دي هوتفيل. نزل بإيطاليا الجنوبيّة في سنة ١٠٥٧م أو ١٠٥٨م، مع مجموعة من المهاجرين النورمان. نال لقب كونت اثر سقوط مدينة بالرمو عام ١٠٧٢م في قبضة النورمان. وذكرته المصادر الإسلاميّة باسم رجار الفرنجي ورُجّار ولوجار ورجار بن تنقريد والقمط رجار بن تنقريد. والقمص رجار بن نيغرد بن حوه. و يُعرف أيضًا باسم روجر الأوّل تمييزًا عن ابنه روجر الثاني. يُعتبر الحاكم الفعلي لصقلية لكن وفق النظام الاقطاعي هو تابع لأخيه روبرت جوسكارد، دوق أبوليا، ثمّ لابن هذا الأخير، روجر بورصا Roger Borsa. أنظر: اماري : المكتبة الصقلية، ص ٢٦، ٢٧٦، ٣١٩، ٤٨٤، ٤٩٧، ٥٣٣ ؛ أحمد عزيز: تاريخ صقلية الإسلاميّة، ص٦١، ٦٣. وارجع أيضًا إلى:
Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 81- 82, 210, 337- 338; La Primaudaie(Eli de.), op. cit., pp. 238- 239, 288

(6) إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، مؤسّسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م، ص. ٢٥٠؛ إحسان عبّاس: العرب في صقليّة، ص. ١٣٧، ١٤٧؛ زيغريد هونكه: نفس المرجع، ص. ٤١٢ ؛ حامد زيان: نفس المرجع، ص١٢٣- ١٢٥. وأنظر أيضًا:
Grimberg(Karl), Histoire Universelle, pp. 126- 127; Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.

(7) أنظر: Marçais(G.), Manuel d´Art Musulman, T. I, p. 181.
والقمص رجار بن نيغرد بن حوه. ويُعرف أيضًا باسم روجر الأوّل تمييزًا عن ابنه روجر الثاني. يُعتبر الحاكم الفعلي لصقلية لكن وفق النظام الاقطاعي هو تابع لأخيه روبرت جوسكارد، دوق أبوليا، ثمّ لابن هذا الأخير، روجر بورصا Roger Borsa. أنظر: اماري: المكتبة الصقلية، ص. ٢٦، ٢٧٦، ٣١٩، ٤٨٤، ٤٩٧، ٥٣٣؛ أحمد عزيز: تاريخ صقلية الإسلاميّة، نقله إلى العربيّة الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربيّة للكتاب، طرابلس الغرب، ١٣٨٩هـ/ ١٩٨٠م، ص٦١، ٦٣. وارجع أيضًا إلى:
Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 81- 82, 210, 337- 338; La Primaudaie(Eli de.), Les Arabes en Sicile et en Italie. Les

Normands en Sicile et en Italie, Challamel Ainé, Paris, 1868,pp.238-239,288.

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، نقلاً عن م.ع.ص.، ص. ٢٦.

(٩) حامد زيان : المرجع السابق، ص١٢٣ ؛ إحسان عبّاس: المرجع السابق، ص.١٣٧.

(*) يحمل كتابه عنوان "أعمال روبرت جويسكارد". جاء مضمونه في شكل أشعار، وقد ألّفه بناء على طلب البابا أربان الثاني (١٠٨٨- ١٠٩٩م) ثم تمّ إهداؤه للدوق روجر بورصا بن روبرت جوسكارد. و يبدو أنّه لا ينتمي إلى فصيلة النورمان بسبب ميله الدائم إلى قدح صفة الشح التي امتاز بها هؤلاء الغزاة.

أنظر: Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. XXXVIII- XXXIX. (38- 39).

(١٠) أنظر: Guillaume de Pouille, Livre III, pp. 175- 183.

وانظر أيضًا : أماري(م) : تاريخ مسلمي صقلية، المجلّد الثالث، ص١٢٢- ١٣٧؛ إحسان عبّاس: العرب في صقلية، ص١٤٧،١٣١؛ عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلاميّة، ص٦١؛ ولمزيد من التفاصيل عن هذا الحدث إرجع إلى: Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 206- 210 .

(١١) على أثر هذا الانتصار بادر الأخوان روبرت جوسكارد وروجر بتقسيم المكاسب التي تمّ تحقيقها في الجزيرة. وقد استأثر جويسكار لنفسه السيادة الكاملة على الجزيرة كما نال مدينة بالرمو ونصف مسينا ووادي ديموني، فيما أخذ البقيّة من الممتلكات على أن يواصل مشروع افتكاك الجزيرة من أيدي المسلمين مع بقائه تابعًا وفصلاً لدوق ابوليا روبرت بحكم النظام الإقطاعي. لكن سطوة روجر الأوّل أخذت تنمو وتتأكّد كلّما تداعت سلطة روجر بورصا، خليفة روبرت حتّى أضحى حاكمًا على الجزيرة دون منازع. ارجع إلى: أحمد عزيز: المرجع السابق، ص٦١، ٦٣- ٦٤ ؛ أماري(م): تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص١٣٨. وانظر أيضًا:

Guillaume de Pouille, op. cit., Liv. III, p. 175 ; Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 209- 210, 337- 338.

(١٢) مورنيو (مارتينو ماريو): المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٧، ص١٩.

(١٣) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤١٣؛ تتناقض هذه الفكرة تمامًا مع رواية وليم الأبولي وهو معاصر لفترة وقوع هذه الأحداث، مفادها أنّ روبرت جوسكارد بعد أن حصّن مدينة بالرمو، عيّن فارسًا نورمانديًا، أميرًا عليها ثُمّ

غادرها نحو مدينة ريجيو بقلورية ومعه مجموعة من الأسر المسلمين. أنظر: Guillaume de Pouille, op. cit., Liv. III, p. 183.

(١٤) أنظر : Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.

(١٥) هونكه : المرجع السابق، ص٤١٣.

(16) العبر، نقلا عن المكتبة الصقلية، ص٤٨٥، ٤٩٧- ٤٩٨. وانظر أيضًا: Chalandon(F.), op.cit., T. I, p.327.

(١٧) طرخان: نفس المرجعن ص٢٥٢ ؛ عزيز أحمد: نفس المرجع، ص٧٨؛ حامد زيادة: الإسلام والمسلمون في صقليّة، ص١٢٤؛ وانظر أيضًا:

La Primaudaie(Eli de.), op. cit., p. 287, note 1.

(*) هو كبير أساقفة مدينة كانتربوري Canterbury – جنوب إنجلترا – جاز إلى جنوب إيطاليا بسبب خلافه مع ملك انجلترا غليوم الثاني (١٠٨٧-١١٠٠م) وكذا لملاقاة البابا أوربان الثاني.

(١٨) أنظر : Eadmer, Vita S. Anselmi, dans Migne, Patrologie Latine, Tome 158, Col. 101 et suiv .

تعتبر رواية أدميرو، مرافق أنسلمو، هي المصدر الذي اعتمد عليه أغلب المؤرخين. أنظر: أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص١٨٧- ١٨٩؛ مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقليّة، ص ١٩- ٢٠. و تُؤكد زيغريد هونكه في كتابها المذكور، ص٤١٣، لبّ هذه الرواية لكن مع شيء من الاختلاف في التفاصيل . أحمد عزيز : نفس المرجع، ص ٧٨. وانظر أيضًا: Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 303-304, 330.

(١٩) أحمد عزيز: نفس المرجع، ص. ٦٤.

(٢٠) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص١٨٦- ١٨٧؛ طرخان: المرجع السابق، ص. ٢٥١؛ أحمد عزيز: نفسه؛ وأنظر أيضًا : Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.

(٢١) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص١٨٧- ١٨٨.

(٢٢) مورينو: نفس المرجع ، ص١٩. وأنظر أيضًا: Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 341, 348.

(٢٣) أنظر: Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 348.

(٢٤) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج٣، ص١٨٩؛ عزيز أحمد: نفس المرجع، ص٦٤. وانظر أيضًا:

De La primaudaie, op. cit., p. 287, note 1.

(٢٥) أنظر : (26)Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.
أماري : تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٢٦٠ ؛ زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص٤١١- ٤١٢؛ إحسان عبّاس : المرجع السابق، ص١٤٤ ؛ إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق، ص٢٥١؛ وأنظر أيضًا:
Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 348.
(٢٧) ابن جبير: رحلته، نقلاً عن أماري، المكتبة، ص٩٢.
(٢٨) ابن جبير: رحلته، نقلاً عن أماري، المكتبة، ص٩٧.
(29) مارتينو: نفس المرجع، ص٢٠؛ حامد زيان: الإسلام والمسلمون في صقلية في ظل الحكم النورماني، ص١٢٥؛ وأيضًا: Gimberg (Karl),op.cit.,pp.126- 127.

(30) حامد زيان: تاريخ الحضارة الإسلاميّة في صقلية وأثرها على أوربّا، القاهرة، ص ١٠٥؛ إحسان عبّاس: المرجع السابق ، ص١٤٦ ؛ طرخان: نفس المرجع ، ص٢٥١. وانظر أيضًا: La primaudaie, op. cit., p. 322 .
(٣١) إنّ أصل هذه الدواوين والدفاتر أثار جدالاً بين المؤرّخين، إذ ينسب أماري مصطلح دفتر ودفاتر Deftarii لغويًا إلى أصول يونانيّة كما يرجع الأداة نفسها إلى النظم الفاطميّة التي سادت صقلية ومصر، فيما يعتقد رأي آخر أنّه مقتبس من الانجاز الإحصائي الشهير المعروف بعنوان "كتاب يوم الآخرة" Doomsday Book والذي وضعه وليم الفاتح النورماندي Guillaume le Conquerant بعد استيلائه على إنجليترا عام ١٠٦٦م. عن تفاصيل هذا الموضوع ارجع إلى: أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص ٣١٦ و ما بعدها؛ عزيز أحمد: المرجع السابق، ص ٧٦؛ مورينو: المرجع السابق، ص ٢٠؛ إحسان عبّاس: نفس المرجع، ص. ١٤٧. وأنظر أيضًا:
Chalandon(F.), op.cit., T. II, pp. 530- 531.
(٣٢) مارتينو: نفس المرجع ، ص٢٠.
(٣٣) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٣٢٥- ٣٢٦ ؛ مارتينو: المرجع السابق ، ص٢٠.
(٣٤) حامد زيان: تاريخ الحضارة الإسلاميّة وأثرها على أوربّا، ص١٠٥؛ مارتينو: المرجع السابق، ص٢٠؛ طرخان : المرجع السابق، ص٢٥١.
وأنظر أيضًا: De La primaudaie, op. cit., p. 322.
(٣٥) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٣٣٧- ٣٣٩.
(٣٦) عزيز أحمد: نفس المرجع، ص٧٦.
(٣٧) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٣٣٩.
(٣٨) أنظر: De La primaudaie, op. cit., p. 322.

(٣٩) مورينو : نفس المرجع، ص٢١.
(٤٠) المرجع السابق، ص٢٠.
(٤١) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص٧٨؛ إحسان عبّاس: المرجع السابق، ص١٣٧.
(٤٢) حامد زيان : الإسلام و المسلمون في صقلية، ص١٢٤- ١٢٥.
(*) أشار أماري إلى أنّ بالدوفينو يقصد به بردويل Baudouin الذي ذكرته المصادر الاسلاميّة لتعنى به الامبراطور الألماني أوتوني الثاني Otton, Othon. لكن ليس هناك ما يربط بين هاذين الحاكمين. فأوتوني تولّى عرش الإمبراطوريّة الألمانيّة من ٩٧٣م إلى ٩٨٣م، أمّا بالدويل فكان ملكًا على بيت المقدس من عام ١١٠٠م إلى ١١١٨م. ويرجح أماري أنّ ابن الأثير لم يُميّز بين موقفين سلبيّين لروجر الأول تجاه الحركة الصليبيّة. الأوّل هو رد طلب البيزيّين والجنويّين عام ١٠٨٦م لغزو مدينة المهديّة بإفريقية والثاني هو رفضه المشاركة في الحملة الصليبيّة الأولى عام١٠٩٦م.
أنظر: أماري : تاريخ مسلمي صقلية، ج٣، ص٩٠. هامش ٢، ص ١٩١.
(٤٣) الكامل، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقليّة، ص٢٧٩.
(٤٤) الادريسي: نزهة المشتاق، نقلا عن م. ع. ص.، ص٢٦؛ أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٢٥٣، ٢٥٦ ؛ عزيز أحمد: نفس المرجع، ص٧٨- ٧٩؛ إحسان عبّاس: نفس المرجع ، ص١٤١، ١٤٧. وانظر أيضًا :
Chalandon(F.), op.cit., T. II, p. 208, 330.
(٤٥) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٢٥٦.
(٤٦) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص ٢٨٣ وما بعدها؛ عزيز أحمد: نفس المرجع، ص. ٨١؛ إحسان عبّاس: المرجع السابق، ص. ١٤٤.
(٤٧) أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص٢٣٨ وما بعدها؛ عزيز أحمد: نفس المرجع، ص٧٩- ٨١؛ إحسان عبّاس : المرجع السابق، ص١٤١- ١٤٣. وانظر أيضًا: De La primaudaie, op. cit., p. 296 ; Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.
(48) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص٧٩.
(49) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص٧٩؛ إحسان عبّاس: نفس المرجع، ص١٤١.
(50) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص٨٠- ٨١. وانظر أيضًا:
Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.
(51) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص٧٨. و انظر أيضًا :
Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 330.
فرضت الجزية أيضًا على اليهود.

(52) ابن الأثير : الكامل، نقلاً عن اكمكتبة العربيّة الصقلية، ص٢٧٨ ؛ نفس الرواية نجدها عند النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقلية، ص٤٤٨.

(53) نقلاً عن أماري : تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص١٢٤. هامش٢ ، و انظر أيضًا : ص١٢٨، ١٣٣، ٢٣٤.

(54) عزيز أحمد : المرجع السابق، ص٧٩ ؛ إحسان عبّاس : المرجع السابق، ص١٤١. و انظر ايضًا :

Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 346.

(55) أنظر : Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 346.

(٥٦) أماري : تاريخ مسلمي صقلية، ج. ٣، ص١٣٥، ١٩٢؛ عزيز أحمد : المرجع السابق، ص٧٩– ٨٠. وانظر أيضًا : Gull. De Pouille, op. cit., Livre III, p. 183 ; Chalandon(F.), op.cit., T. I, p.p. 342- 343 ; De La primaudaie, op. cit., p. 288 .

(٥٧) إماري: نفس المرجع: جـ. ٣، ص. ١٧٥. ١٧٨؛ أحمد عزيز: نفس المرجع، ص. ٦٢؛ وأنظر أيضا: Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 339- 340.

(٥٨) أنظر : Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 338.

(٥٩) حامد زيان : الإسلام والمسلمون في صقلية، ص١٢٣.

(٦٠) الكامل، نقلاً عن المكتبة الصقلية، ص٢٧٦. ذكر هذه الفكرة أيضًا كل من ابن أبي دينار والنويري: نقلاً عن المكتبة الصقلية، ص ٥٣٤، ٤٤٧– ٤٤٨.

(٦١) الأصفهاني(عماد الدين): كتاب خريدة القصر وجريدة القصر، نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقلية، ص٥٨٢.

الشاعر من أصل إفريقي استقرّ في مدينة بالرمو. نفس المصدر.

(٦٢) عزيز أحمد: نفس المرجع، ص ٧٩– ٨٠. طرخان (إبراهيم): المرجع السابق، ص ٢٥٢. و انظر أيضًا:

Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 348- 349.

(٦٣) تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص ٢١٤ و ما بعدها.

(٦٤) عزيز أحمد : نفس المرجع، ص ٨٠.

(٦٥) أنظر : Chalandon(F.), op.cit., T. I, pp. 343- 347.

عن تفاصيل هذه العلاقة ارجع إلى: Jordan(Edouard), La Politique 2cclésiastique de Roger 1er et les origines de la légation sicilienne des le Moyen- Age, Paris, 1923.

(٦٦) أنظر : Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 350.

(٦٧) نزهة المشتاق، نقلاً عن المكتبة الصقليّة، ص٢٦.
(٦٨) تاريخ مسلمي صقلية، ج ٣، ص ٢٥٥- ٢٥٦.
(*) كهيئة كلوني Cluny وهيئة سيتو Citeaux بفرنسا.
(٦٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، نقلاً عن المكتبة الصقلية، ص ٢٧٩. وانظر أيضًا: أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج٣، ص ١٧٠، ١٨٩- ١٩١. وارجع أيضًا إلى:
Chalandon(F.), op.cit., T. I, p. 332 ; Idris(H.R.), op.cit., p. 287.

بيبليوغرافيا:

المصادر والمراجع العربيّة:

- ابن الأثير : (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٨م).
* الكامل في التاريخ، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الله بن إدريس، ت. ٥٦٠هـ/١١٦٥م).
* نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- الأصفهاني(عماد الدين).
* كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، في المكتبة العربيّة الصقلية، ليبسك، ١٨٥٧م.
- أماري (ميخائيل):
* المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
* تاريخ مسلمي صقلية، إعداد د. محب سعد إبراهيم، لي مونييه، فلورنسا (إيطاليا)، المجلّد الثالث، ٢٠٠٣م.
- ابن جبير الكناني : (ت. ٦١٤هـ/١٢١٧م).
* رحلته، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- ابن حوقل : (ت. بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م).
* كتاب المسالك والممالك، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- ابن خلدون : (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).
* كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- ابن أبي دينار : (من علماء القرن ١٢م).
* المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- النويري: (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م).
* نهاية الأرب في فنون الأدب، في المكتبة العربيّة الصقليّة، ليبسك، ١٨٥٧م.
- إحسان عبّاس:
* العرب في صقلية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

- حامد زيان (غانم زيان) :
* تاريخ الحضارة الإسلاميّة وأثرها على أوربّا، القاهرة، ١٩٧٧م.
* الإسلام والمسلمون في صقلية في ظل الحكم النورماني، مجلّة كليّة الآداب، جامعة القاهرة،المجلّدان السادس والثلاثون والسابع والثلاثون، الجزءان الأوّل و الثاني، مايو، ديسمبر، ١٩٧٤م، ومايو- ديسمبر، ١٩٧٥م، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨١م.
- زيغريد هونكه :
* شمس العرب تسطع على الغرب - أثر الحضارة العربيّة في أوربّا- ، نقله عن الألمانيّة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- طرحان(علي إبراهيم) :
* المسلمون في أوربّا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م.
- عزيز أحمد :
* تاريخ صقلية الاسلاميّة، نقله إلى العربيّة الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربيّة للكتاب، طرابلس الغرب، ١٩٨٠م.
- ماجد (عبد المنعم):
* العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، ١٩٦٦م.
- مورينو (مارتينو ماريو):
* المسلمون في صقليّة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٧م.

المصادر والمراجع الأجنبيّة:

-Chalandon(F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Librairie Alphonse Picard et fils, Paris, T. I, II, Paris, 1907.
-Chronique du M^{t}- Cassin, traduction de Joseph Calmette, dans Textes
et Documents M-Age, Tome II, Paris, 1953.
-Delarc(L'abbé O.), Les Normands en Italie, depuis les Premières invasions Jusqu´à l´avènement de S^{t} Grégoire VII, Paris, 1883.
-Gimberg(Karl), Histoire Universelle, traduction de l´Allemand par Henry Fagne, Belgique, 1983.
-Guillaume de Pouille, La Geste de Robert Guiscard, Edition, Traduction, Commentaire et Introduction par Marguerite Mathieu, Palermo, 1961.
-Halphen(L.), L´Essor de l´Europe, XI^{e} – XIII^{e} S., Paris, 1932.

-Jordan(E.), La Politique Ecclésiastique de Roger 1er et les origines de

la légation Sicilienne dans le Moyen-Age, Paris, 1923.

-La Primaudaie(Elie De), Les Arabes et les Normands en Sicile et en

Italie, Challamel Ainé, Librairie- Editeur, Paris, 1868.

-Marçais(G.), Manuel d´Art Musulman, T. I, Paris, 1926.

-Musset(L.), Les Peuples Scandinaves au M-Age, Paris, 1951.

-Orderic Vital, Historia Ecclesiastica, traduction de Guizot(P.F.G.),

dans collection des Mémoires Relatifs à l´Histoire de France,

T. II, Paris, 1825.